كل شئ على ما يرام

بقلم
فخري قعوار

طال بهم الصمت ، وامتدت فترة الانتظار للحظة الحاسمة عدة أيام ، وقد شعر ياسين أبو زينه بالسأم يتسرب الى نفسه ، والقلق يستبد به ، وازاء هـذا كله ، كان الشاويش فتحي السبعاوي يقول بهدوئه البسمج :

ـ ماذا أفعل لكم ·· الى ان تأتينا الأوامر نتقدم ·

وبحث أبو زينه عن مكان يمكنه الجلوس فيه ، فالقى بجسمه على الارض بلباسه الفيتيك ، ووضع كيس «الفشك» والبندقية أمامه ، ووضع رأسه على حجر صغير هناك ، وراح يرقب زملاءه الجنود لقد اجتاحهم السأم وانتظار اللظحة الحمراء ، فراحوا يمازحون جنديا بدينا ، مترهل الجسم ، مندلق الكرش ، عينيه صغيرتين تكادان أن تضيعا فى ثنايا وجهه وكأنه مصاب بورم مخيف، كانوا يلقبونه ب «البمبة» ، ولا ينادونه الا بهذا الاسم وقد كان يبدو عليه الرضا عن ذلك ، ربما من قبيل المجاملة أو التسليم بالامر الواقع ، المهم انه كان يبدو عليه الانشراح لكل ما يوجه اليه من القاب وكلمات اليمة ، وقد كانوا ينفضون عنهم غبار السأم أيضا ، فيرددون معا أغنية عبد الوهاب القديمة «كذا» نحب القمر» بتحويل بعض كلماتها الى الفاظ بذيئة ·

وعلى كل حال فقد كانوا مبعث تسلية ولهو فى بعض الاحيان ، ولم يكن ليجرؤ أحد منهم أن يتحدث الى أبو زينه مازحا أو متهكما ، فقد أشعرهم انه حاد المزاج، وانه رجل مسؤل عن قضايا كثيرة خلفها وراءه فى البيت ، وهنا تذكر ابنه سليمان ، فغمغم وهو يصرف بأسنانه :

ـ ملعون أبوك ·· ذا بحتك الوطنية ·· تستاهل ··

فهو لم يكن يعلم لماذا يحشر ابنه أنفه فى أمور ليست من شأنه ·· وكثيرا ما قال له ان السياسة لها أصحابها ·· ورجالها الذين يفهمون فيها ، ولا يعنيه منها شيء ، وكل ما عليه أن يأكل ويشرب ويذهب الى المدرسة ، ماذا يريد ما دام يجد من يصرف عليه ، ويكون مسئولا عن ملبسه ومشربه ومأكله وجميع حاجياته ؟ ثم ماالذى يدفعه ليعرض حياته للخطر ، مادام هناك من كلفتهم «الدولة» بالدفاع عنه ؟ ·· ولمع جلد وجه أبو زينه الحليق ، عندما حرك نواجذه غيظا وحنقا على ابنه ·

ـ خلاص ·· فلت الولد من اليد ·

لاشك ان نهايته المو ··· لاحول ولا قوة الا بالله :

ـ ملعون أبوك على أمك .

وخيل اليه أن سليمان يهزأ من كل افكاره ، ولا شك أنه سيقول له كعادته ، انه يحمل عقلا صدئا ، وهو يستغرب من أين يجيء ابنه باندفاعه وحماقاته ، ولا يدرى من أين يأتى بعدم اهتمامه للموت والدماء ، فاذا ما حذره من خطر ما يحيق به ، يجيب :

ـ طظ .. الهدف قبل كل شيء .

ماذا ، أنفعته الاهداف ؟ أأفاده الكلام الفارغ والجنون ؟ .. لا ، لم يستفد الا انه كاد يموت قبل ثلاثة أسابيع ، عند ماجاءته رصاصة من بندقية أحد الجنود ذوى الوجوه الحمراء ، أصابته فى كتفه اليمنى . ولولا أن «الدولة» أنقذته .. لانتهى كل شيء ، كل شيء ، ومع هذا فاغلب ظنه أنه لن يقتنع بصحة افكاره وسيظل ممعنا فى حماقته وتهوره الى .. الى ما شاء الله .

وانتبه أبو زينه الى الجنود وهم يحيطون بالرجل البدين ، ويرددون كلمة « البمبة » بمصاحبة كف أيقاعى ، وكان الرجل يصيح بهم أن يتركوه ليؤدى صلاة المغرب ، الا انه لم يفلح فى اسكاتهم حتى أبعدهم عنه الشاويش سبعاوى ، فاتخذ له مكانا قصيا عنهم ، شمالى الخندق بأمتار ، تحت شجرة بلوط نصفها مخضر والنصف الآخر متيبس ، وراح يصلى .

وتناهى الى اذنى أبو زينه دوى طائرة قادمة صوبهم ، كما تناهى الصوت الى آذان الجميع فقال الشاويش :

ـ كل واحد مكانه .

وعلى الفور ، حمل كل جندى عدته ، واندفع راكضا داخل الخندق ، وعندما كان أبو زينه منسدحا على بطنه ، متكئا على ساعديه وهو يمسك بندقيته ، لمح من تحت حافة «خوذته» الجندى البدين مايزال يبحث عن حقيبته وبندقيته بطريقة تدعو للضحك ، فى حين أن الطائرة دارت حول الخندق دورتين ، وهى غير مرتفعة كثيرا عن الارض ، ثم عادت من نفس الاتجاه الذى أتت منه ، وهنا قال السبعاوى انهم يستطيعون الخروج ، على أن يظل كل واحد على أهبة الاستعداد والتهيؤ لأن هذه الطائرة ، طائرة استكشافية للعدو وصاح الجندى البدين :

ـ الله يخرب بيتك .. خربت بيتنا .

وقال احد الجنود :

ـ حمار طول عمرك .

وقال آخر .. مؤكد أنهم عرفوا ..

وهنا غمغم الرجل ، بأنفاس مبهورة ، والعرق يتفصد من كل مسامات وجهه :

ـ والله نسيت مكان البارودة والحقيبة ياسيدى .

فقال الشاويش بعصبية ظاهرة .. خرج بها عن هدوئه المعهود :

ـ امش . امش .. يلعن كل الدواب لأجلك .

وخيم عليهم صمت ثقيل لزج ، ولمعت فى عيون الجميع لمعات كئيبة خرساء ، وعلت وجوههم مسحة رمادية توحى بالشؤم وخيبة الأمل ، وأحسوا بالنهاية والفشل ، فاتخذ كل واحد منهم مكانا له ، ورجلس اليه ، أما السبعاوى فقد كانت تقرأ على وجهه ملامح من يريد عمل

شيء ، ولكن ثمة قيـودا تمنعه ، ولمح أبو زينه الجندى البدين يكفكف دمعتين انزلقتا على خديه ، فتقدم منه ، وشجعه ببضع كلمات ، وحاول أن يجعله يقابل المعركة المرتقبة بجراة وقوة ، وعـدم اهتمام للمصير الذى يترتب على ذلك ، لكن الرجل أجابه بصـــوت مرتجف راعش :

انا خائف على ابنى فارس ، علمى به يريد التطوع للحرب و ...

وحانت من أبو زينه نظرة الى غربى الخندق ، فرأى سيارة «جيب» قادمـــة يلفها الغبار بثوب ممتقع ، تسـير على موازاة قرص الشمس، الذى يعانق الافق ويوشك أن يذوب فيه، وعرف أن «ضابط الفئة» فيها مع سائقه، وظل يرقب السيارة حتى وصلت ، وهبط منها الضباط ، كان طويل القامة ، أنيق المظهر مع انه يلبس «الفيتيك» أيضا ، له شاربان كثيفـــان متهدلان على شفته العليا ، أسود الحاجبين عاقـــدا ما بينهمـــا وراح يرمق بعينين سوداوين حادتين وكانهما عينا عقاب .. وهو ممسك بعصا قصيرة سوداء غطيت نهايتاها بقطعتين من الفضة الكابية وهم يؤدون له التحية ، وتقدم منه الشاويش وأدى التحية أيضا ، ثم قال له عن أمر الطائرة التى أتت قبل قليل ، فهز رأسه دون أن يجيب بحرف واحد ، بطريقـة من يفهم الامور بأسرع مما يجب ، ثم أدار وجهه نحو السائق وقال له بصوت نخين جميل :

ـ ورع البريد يامحمد .

وانشدت العيون الى شفتى الرجل وهو يقرأ اسماء أصحاب الرسائل ، ولم يكن أحد منهم يعى اسما غير اسمه ، ويتصور كيف سيتلفظ به محمد بعد قليل ، كان صوته كزعيق مجموعة من الفئران اتفقت على أداء كلمات متماثلة ، وشارباه اتخذا شكل مربع ، فكانا كظل لأنفه المعقوف ، وزعق باسم أبو زينه ، مضيفا بعدها كلمة «برقية» وكان آذ ذاك صوت طائرة سريعة فى مسـارها ، يصل الى الآذان فالتقط الرجل الوريقة بيد محمد .. ولم يتمكن من فتحها ، لان أوامر الضابط جاءت بأن يلجأ كل الى مكمنه ، فأمسك الوريقة والبندقية بيـد واحدة ، وراح يركض نحو الخندق ، وهو يدمدم :

ـ من سليمان .. من سليمان .

وانسدح على بطنه ، كما فعل الجميع وراحت الطائرة تصب حممها على مكان الاستحكام ، فاصيبت شجرة البلوط ، وانكسر نصفها المتيبس ، وهنـا همس الضابط بصوت قصد منه اسماع الجميع أن جيش العدو لابد متقـــدم ، وكفت الطائرة عن القاء قذائفها ، وعادت من حيث أتت، فى حين تولى قيادة المعركة الجيش المشاة ، فراحوا يضربون الخندق بالقنابل اليدوية ، كما يردون الطلقات النارية الصادرة منه .

بعد نصف ساعة من بدء القتال ، كان الصمت والكآبة يخيمان على أرض المعركة وأنفاس العدو تلهث من كل الجهات .. وشجرة بلوط يعيش نصفها المخضر ، وسيارة «جيب» مصابة بكل عاهة .. تقف بغباء وانشداه ، ووريقة ممزقة ، كتب على جزء صغير منها : « كل شيء على ما يرام » .